الحِوَارُ المعجِزُ: مُقَارَبَةٌ حِجَاجِيَّةٌ لِسُورَةِ (ص)

The Miraculous Dialogue: An Argumentative Rapprochement for the Qur'anic Surah "Sad"

إعداد: **هند خابّة:** باحثة بسلك الدكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، المغرب.

Ms: Hind Khabbah: PhD Researcher, Faculty of Arabic Language, Cadi Ayyad University, Morocco.

Email: hindkhabbah99@gmail.com

DOI: https://doi.org/10.56989/benkj.v3i6.242

المستخلص:

إن الجدل والحجاج والرغبة في المعرفة سمات بشرية، تتحقق ضمن نطاق تواصلي محكوم بجملة من القواعد المنظمة لهذا التواصل، ومن هذا المنطلق تسعى الدراسة إلى البحث في أسس الحوار الإنساني السليم، الذي يفضي إلى مطارحات فكرية وازنة، تكتسي أدبا وتنم عن الخلق الرفيع، وذلك عن طريق استنباط المبادئ القرآنية؛ التي يمكن أن يُبنى بها الحوار الناجح، وإن كان في أصله منازعة فكرية نحت منحى الخصام. وخدمة لهذا الغرض اختيرت سورة "ص"، لتضمنها جملة من الخصومات المسوقة في قالب حواري حجاجي، جامعة بين عالمي الغيب والشهادة. وبيانا لذلك؛ استهلت الدراسة بعد المقدمة بمبحث أول عُني بالحوار والحجاج في الخطاب القرآني العظيم، متبوع بمبحث ثان عن صور ورود الحجاج في القرآن الكريم، فمبحث ثالث وأخير عن الخصومة من منظور حجاجي، وفقا للمنهج القرآني من خلال سورة (ص)، ثم خاتمة تستخلص فيها نتائج الدراسة؛ باعتماد المنهج الاستنباطي. يُبرهن انطلاقا منه على أن هذا الخطاب ليس حكرا على عرق دون آخر، أو أمة دون أخرى، بل إنه حجة باهرة للعالمين. ومن هذا النسق البياني يُبتغى التوصية عمليا: بضرورة الأوبة إلى النصوص القرآنية وتحكيمها في فض الخلافات ومعرفة الحق من الواجب على المحاور في علاقته بالطرف المخالف، ومن الناحية العلمية: بضرورة استحضار الفقه المعاصر في تقرير المسائل الإنسانية ووصلها بما هو اجتماعي نفسي، مع التقعيد العلمي لضوابط التواصل الإنساني باعتباره بابة السلام والتفاهم والتعايش الحضاري، وبذا كان الحوار القرآني المعجز خير معين على تحقيق ما تصبو إليه الإنسانية السوية.

الكلمات المفتاحية: الحوار، الحجاج، سورة "ص"، الخصومة.

Abstract:

Controversy, argumentation, and the desire to search for knowledge are human traits that are achieved within a communicative scope governed by a set of rules regulating this communication. From this principle, the study seeks to investigate the fundamentals of sound human dialogue, which leads to balanced intellectual discourses that are wrapped with literature and expressing high moral, by deriving Qur'anic principles; In which a successful dialogue can arise, even if it was originally an intellectual dispute under the sense of contention. To achieve this purpose, the Qur'anic Surah "Sad" was chosen, because it includes a

number of disputations presented in the form of an argumentative dialogue, which shows the worlds of the supernatural and testimony. After the introduction, the study began with the first chapter as an explanation for that which is concerned with argument and dispute in the great Quranic discourse. Then it is followed by a second chapter that talks about the forms of arguments in the Holy Qur'an. While the third and final chapter in this study deals with disputation from an argumentative perspective, according to the Qur'anic approach through Surah (Sad). Then it concludes by a conclusion explaining the results of the study; by adopting the deductive method, as it proves from it that this discourse is not exclusive to a race or nation alone, rather, it is an impressive argument for the whole world. As a result, and from this rhetorical style, it is practically necessary to recommend the necessity of referring to the Qur'anic texts and arbitrate them in resolving disputes and knowing rights and obligations of the interlocutor in his/her relationship with the opponent. From a scientific point of view: The study recommends the need to employ contemporary jurisprudence in determining humanitarian issues and linking them to what is social and psychological, with the scientific setting of rules for the controls of human communication as it is the door of peace, understanding and civilized coexistence. Thus, the miraculous Quranic dialogue is considered a good helper in achieving what normal humanity aspires to.

Keywords: dialogue, argumentation, Qur'anic Surah "Sad", disputation.

مقدمة:

ترتام المداخل المعرفية الحجاجية المسوقة لدراسة المنهج القرآني استنباط الأصول الحوارية الضابطة للنقاش الإنساني؛ سواء أكان في صيغة محاججة أو مجادلة أو مخاصمة، وتنميطها لتساير الأخلاق الرفيعة التي دعا إليها القرآن الكريم، وذلك برصد آداب إدارة الحوار وفقا لمنهج رباني لطيف بعباده، منهج مجعول لحسن انتقاء الكلم الطيب والتعامل بالحسنى، فما من موضع تنازع بين المؤمنين إلا وأنت ترى القرآن الكريم سباقا إلى الرحمة، واللين والصفح، والعفو والتلطف بالآخر؛ يقول الله جل شأنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[آل عمران: 159] ويقول سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ١٣﴾[المائدة: 13] وفي سورة النور يقول تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[النور: 22] ويقول عز من قائل: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ٨٥﴾[الحجر: 85]

إن سورة "ص" السورة الشريفة العظيمة سيقت في قالب حواري حجاجي ضُمن خصومات علوية من قبيل اختصام الملأ الأعلى وأخرى دنيوية مثل التنازع الذي ينشب بين الأقوام وأنبيائهم، إنها مثال حواري رفيع لا يدانى ولا يطال، معجز باعتبار ما تضمن من أخبار غيبية ومن بلاغة إعجازية، ومن نظم لا يرام.

أهداف الدراسة وتساؤلاتها:

بيانا لما ذُكِر فإن هذه الدراسة تروم تحقيق أهداف علمية أخلاقية؛ –نابعة من أهمية البحث في هذا المجال، خصوصا في عصر ذي أحوال مضطربة، باتت فيه القوى تتناحر على جميع الأصعدة، بدء من العلاقة التواصلية بين الأفراد وصولا إلى العلاقات الدولية، فكلما كان باب التحاور الذي يتم بأسلوب حجاجي مسالم مفتوحا ويسيرا؛ كلما كانت القدرة على حل الأزمات ممكنة–، وذلك عن طريق مساءلة أسباب الانفعال أثناء الاصطدام الفكري؛ أي كيف يمكننا أن نحول الخصام من كونه نزاعا فكريا إلى حوار إنساني يدافع عن رأيه بحجج سليمة خالية من أساليب التغليط والسفسطة، وفقا لسلم حجاجي تداولي يحترم عن طريقه ذات الآخر ورأيه، ويناقشه باللين؟ كيف يمكن أن نتخذ من سورة (ص) منهجا اجتماعيا في إدارة نقاشاتنا؟ وكيف نتقبل الآخر ونحاوره، ليس بالضرورة أن نؤمن بقوله لكن أن نعطيه مساحة لطرح ما عنده؟ أي كيف ننأى عن الخصام؟ وكيف نحول الخصومة إلى محاججة فيها مراعاة للطرف المخالف؟ كيف نصنع باعتماد المنهج القرآني مسارات للفهم تجنبنا سوء الفهم عن طريق الحجاج؟

منهج الدراسة:

وللإجابة عن الإشكال الذي يؤطر هذه المقاربة، فقد انتظمت الدراسة ذات المنهج الاستنباطي باعتماد آليتي الوصف والتفسير؛ في مقدمة وخاتمة بينهما ثلاثة مباحث؛ وفقا للمنهجية التالية:

1. تقديم ضُمن زبدة الدراسة، مع ذكر أهم أهدافها، والأسئلة التي تروم الإجابة عنها، مع أسئلة فرعية يمكن عدها ثغرات بحثية قد يُعمل عليها ويتخذ منها فكرة للدراسة.
2. يعقب ما ذُكر؛ مبحث أولي تمهيدي فيه تأطير نظري للمفاهيم المركزية وُسِم بـ: الحوار والحجاج في القرآن الكريم.
3. مبحث ثان عن صور ورود الحجاج في القرآن الكريم وأنواعه.
4. مبحث ثالث عن الخصومة في سورة (ص) رؤية حجاجية، في البداية عني ببيان دلالة الخصام ومتدانياته اللفظية، ثم الخصومات في سورة (ص).
5. خاتمة.

أهمية الدراسة:

لا مراء في أن المنهج القرآني هو الأساس المتين الذي ينبغي أن يؤسس عليه كل بناء منيف، يبتغى بوساطته الإصلاح والتغيير نحو الأفضل، التغيير الذي تنشده الإنسانية وتسعى إليه، وهذا السعي لا يمكن أن يتحقق بمعزل عن التواصل وفتح باب الحوار، الباب الذي شرّع في السماء قبل الأرض، ومن هذا الاعتبار تستمد الدراسة أهميتها من اتصالها بالقرآن الكريم، وبمحاولة النهل من المبادئ الحوراية المركوزة فيه.

إن أي دراسة لم تخرج نتائجها من حيز التنظير إلى حيز التطبيق لا يمكن الحديث عن أهميتها، ما لم تكن ذات مخرجات علمية عملية صالحة للمجتمع المعاصر، بما يكتنفه من ضغوط وتسارع وأزمات. ولأجل ذلك اعتنت هذه المقاربة بمحاولة فحص سورة (ص) العظيمة، وتمحيص حوارها المعجز، القمين بأن يكون النهج الأخلاقي الذي يؤطر التحاور وما يستوعبه من قوى حجاجية.

المبحث الأول: الحوار والحجاج في الخطاب القرآني العظيم:

إن عتبة كل علم من العلوم هي معرفة ماهيته التي بها يتفرد عن غيره، والجوهر الذي عليه تأسس، ومن ثمة يسهل التعامل مع مادته العلمية، وتحديد ما تقتضيه من طروحات وقضايا نظرية وتطبيقية، ووضع مبادئ تسعف في فهم مجمل علائقه وترابطاته، وكذا تمييزه عن العلوم التي تربط بينه وبينها علاقة مشابهة. ولأجل هذا فإن المعرفة الدلالية التي يُتبين من خلالها ماهية الشيء

تمنح فرصة اختراق كنه الرسم وبسط حد له، وبذا ارتئي وضع المفاهيم المركزية التي تؤطر هذه الدراسة على مساقات محددة لمداليلها التي تخدم أهدافها.

أولا: الحوار

إن الحوار المعجز في القرآن العظيم يكتنز أبعادا حجاجية مخصوصة «لا كفؤ لها. وقد ارتبط بالدعوة إلى عقيدة التوحيد التي أمر بها الله سبحانه وتعالى عباده وهو العليم الخبير بما يصلح لهم في دنياهم ودينهم»[1] والحوار بشكل عام من الأجزاء التعبيرية التي تكتسي طابعا هاما في القصة، بل هو صفة من «الصفات العقلية التي لا تنفصل من الشخصية بوجه من الوجوه»[2]، وقبل الإتيان على بسط الحديث عن الحوار يورد مدلوله اللغوي: فيقال: الحور أي الرجوع والنقصان، أما المحاورة فهي المكان الذي يحار فيه، أو يحور، وحوف الأذن، ومرجع الكتف والصّدفة، ونحوها من العظم، والإحورار: أي الابيضاض، والحوار بالضم: ولد الناقة ساعة تضعه، أو إلى أن يفصل عن أمه، والمحاورة والمحورة: الجواب، وتحاورا: تراجعا الكلام بينهما[3]. إنه مقاولة أو مراجعة للكلام بين شخصين أو أكثر، فتكون المحاورة كلاما ليس بالضرورة منشؤه الخصام، إنما قد يكون حوارا علميا أو فكريا تناقش فيه الأخبار، وتراجع فيه الأفكار والأحداث، وقد يثمر نتائج جيدة في حالة التداول السليم، إلا أنه قد ينحرف النقاش إلى حوار فيه تعصب وتلفظ قبيح فيتحول بالضرورة إلى خصومة.

أما في القرآن الكريم فالحوار معجز، تراصت بنياته في قصص قرآني شريف «يعبر عن معانيها أرفع الكلام وأسماه، وأعرقه في مرماه.. إنه صور تخرج خبايا النفوس فيصورها خالقها من خلالها.. وتكشف عن طوايا الصدور. فيعرضها الرب سبحانه على وجهها»[4]، لتغدو حقيقة تتراءى للمتلقي، لا يكتفي حين قراءة القرآن الكريم بالنظر الحسي إلى الرسم القرآني فقط، وإنما يتعدى الأمر ذلك، إلى التماهي مع الأحداث وتحسسها حقيقة وجدانية، تبث في النفس حركة غريبة عن الذات، مؤنسة للروح؛ ولعل «من أمثلة مزايا تلك الحركة المتنقلة بين أبعاد القصة في القرآن ملء الفراغات التي تكون عادة بين مقاطع الحوار، وتقع أثناء المقاولة والمصاولة حتى يشعر القارئ أو السامع أو المشاهد أنه يعيش فعلا مع أحداث القصة. ينتقل مع أشخاصها. ويحاور أبطالها.

---

[1] – خلادي، محمد الأمين: الحوار المعجز وأثالة الادكار (قراءة في توصيلية الحجاج والتلقي؛ سورة يوسف عليه السلام أنموذجا)، الحوار الفكري، ص: 241.

[2] – نجم، محمد يوسف: فن القصة، (د.ط)، بيروت، دار الثقافة، ص: 45.

[3] – الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب (1426هـ-2005م): القاموس المحيط، تح: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط 8، مؤسسة الرسالة، مادة: "حور". الفيروزبادي: القاموس المحيط،

[4] – السيد عبد الحافظ عبد ربه: بحوث في قصص القرآن، ص: 73.

ويشفق لهم أو منهم أو عليهم»[1]، وهذا ما يمكن وسمه بالانبعاث النفسي للمعنى القرآني الذي يثار عند المتلقي المتدبر لكلام الله جل شأنه، عن طريق الحوار القرآني، ومن نقطة الحوار يُنتقل إلى جانب اللين في المطارحات الفكرية وهو الحجاج.

ثانيا: الحجاج

بالنظر إلى ما تسمح به المعاجم اللغوية من تعريفات، نجد أن معظمها تكاد تجمع على ما عرف به ابن منظور (ت711ه) مصطلح الحجاج؛ إذ يقول: «يقال حاججتُه أُحاجه حِجاجاً ومحاجة حتى حججتُه: أي غلبته بالحجج التي أدليتُ بها[...] والحجة: البرهان؛ وقيل الحجة ما دوفع به الخصم؛ وهو رجل مِحجاج :أي جَدِل؛ والتَّحاج :التخاصم؛ والحجة الدليل والبرهان»[2]، فهو يقدمه باعتباره نسقا؛ ينطوي على البرهنة في إطار جدلي، مداره فكرة معينة تُطرح؛ فيقدم كل خصم تصوره، مرفوقا بحجج تعضد وتدعم قوله وبالتالي تكسبه قوة، ونتيجته تقوم بالغلبة، وأصل الحجاج خصام إذ «التَّحاج: التخاصم»[3]، وهنا نفرق بين الخلاف والاختلاف وإن كان البعض يجعلهما بمعنى واحد، فالاختلاف أمر فطري، لأنه من المحال اتفاق الناس حول قضايا أو ظواهر أو آراء معينة، فمنها ما يحكمها الذوق، ومنها ما يحكمها الاعتقاد أو طبيعة الفكر... أما الخلاف فغالبا ما يرد إلى الخصام، والأول يؤدي إلى الثاني في أغلب الأحيان.

وقبل ابن منظور أورد ابن فارس (395ه) مصطلح الحجاج في معجمه حين حديثه عن لفظة "محجة"؛ أي جادة الطريق، قائلا إن "الحُجَّة" مشتقة من ذلك «لأنها تُقصد، أو بها يقصد الحق المطلوب. يقال حاججت فلانا فحججته أي غلبته بالحجة، وذلك الظفر يكون عند الخصومة، والجمع حجج. والمصدر الحِجَاج»[4]. فالحجاج يكون عن قصد ودراية، لأن الغلبة لا تحصل لمن لا حجة له، «ومنه حديث معاوية: فجعلت أحجُّ خصمي؛ أي أغلبه بالحجة، وحاجه يحجه حجا: أي غلبه على حجته»[5]. ويضيف ابن فارس على ذلك قوله: «الحِجَاجُ، العظم المستدير حول العين»[6]. فالمعنى الذي يمكن اجتباؤه من هذا التعريف؛ أن هذه الدلالة تعطي بعدا أخر لهذا المصطلح؛ وهو

[1] –المرجع السابق، ص: 77.

[2] – ابن منظور (1997): لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط1، بيروت: دار صادر، مج2، ص580. مادة "حجج"

[3] – الفيروزبادي: القاموس المحيط، ص: 183.

[4] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج: 2، ص: 30.

[5] – ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، دار الكتب العلمية، ج: 1، ص: 342.

[6] – ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج: 2، ص: 31. مادة "حجج".

وضع القضية المحاج عليها موضع العين، والعظم الذي يحيطها هو المحجر الذي تمثل صلابته قوة الحجج والبراهين التي يقدمها طرفا المحاججة.

وبالأوبة إلى بعض المعاجم الغربية[1] تجد أنها تقدم مصطلح "الحجاج" بشكل يكاد يتطابق والتحديد اللغوي العربي للحجاج، الذي يقابله في اللغة الفرنسية لفظ: "Argumentation"، وفي اللغة الإنجليزية: "Argumentation " المشتق من فعل: "Argue"، ويراد به تلك العملية التواصلية التي تتم بين شخصين أو أكثر، يتداولان الحجج فيما بينهما، مع تقديم ما يؤيد أو يخالف موقف كل واحد منهما أو منهم، حول القضية موضوع التَّحاج، وفي اللغة الفرنسية تدل لفظة " Argument"على الاعتراض أو طرح موقف مصاحب بحجج تؤيد وجهة النظر وتدعمها، وبقدر قوة الحجج تكون قوة السُلم الحجاجي.

من هذا المنطلق يمكن حصر التداخلات المعرفية بين التحديدات اللغوية لمصطلح الحجاج، في المعاجم العربية أو الغربية، في خمسة جوانب:

- ❖ الجانب الأول: وجود طرفي الحوار أو أكثر.
- ❖ الجانب الثاني: وجود قضية للنقاش حولها، وامتلاك موقف: إما تأييدا أو معارضة.
- ❖ الجانب الثالث: استعمال الحجج والبراهين.
- ❖ الجانب الرابع: الغلبة تكون لصالح صاحب أقوى حجة وبرهان.
- ❖ الجانب الخامس: عدم رمي الطرف المخالف بالسوء، وعدم استعمال العنف.

إن هذه الفضاء الدلالي المعجمي يعطينا تصورا «يجعل الحجاج يكتسي قيمة ضدية أو قيماً متضادة تنبني في طبيعتها على الإشكالي والجدلي في إطار الفكر والثقافة»[2]. أي أنه يقوم على الاختلاف، أو على مبدأ التضاد الفكري، إذ لا يتصور أن يكون الحجاج بين أطراف اتفقوا على نفس الفكرة أو المعتقد، وطرحوا في سبيل الدفاع عنها ذات الحجج والبراهين، فالحجاج مراجعة؛ لا تكون إلا في المحتمل الظني، القابل للشك وللتنازع حوله، وهو وضع تصور معين تحت التجربة الفكرية، وسعي في سبيل المعرفة، وتحقيق لمبدأ التعلم والمدارسة، داخل إشكال يسمح بولوج عالم تلك الفكرة أو القضية المثارة، وبذا يمكن إخضاعها للتقاول والمراجعة ضمن إطار حجاجي تداولي لا عنف فيه.

---

[1] – ينظر:

- Le grand Robert, Dictionnaire de la langues française , 1 ere édition, Paris, 1990, P : 65.
- Longman, Dictionary Of contemporary english, Longman 1989, P : 34.

[2] – عليمات، يوسف محمد (2013): بلاغة الحجاج في النص الشعري: دالية الراعي النميري نموذجا، مجلة جامعة دمشق–المجلد 29–العدد (1+2)– ، ص: 256.

المبحث الثاني: صور ورود الحجاج في القرآن الكريم

يخبرنا القرآن الكريم في مواضع كثيرة عن قصص أنبياء حاجَّتهم أقوامهم، في قضايا هي من صميم أصول الملل؛ من قبيل: "التوحيد، والنبوة، والوجود، وفرض الشرائع، والبعث، والحساب، والإحياء والإماتة..."، فلا يمكن أن يقوم بين نبي مرسل ومشاغب[1] حوار، إلا في سياق جدلي حجاجي، ولهذا تجد أن الآيات التي ذكرت فيها مشتقات جذر (ح. ج. ج) تربو على العشرين، ويمكن إحصاء العشرين منها في الجدول التالي:

السورة:	عدد ورود جذر (ح.ج.ج):	اللفظ الوارد:
البقرة	4 مرات	حاجَّ/ ليحاجوكم/ أتحاجوننا/ حجة
آل عمران	6 مرات	حاجك/حاجوك/حاججتم/تحاجون/ تحاجون/ يحاجوكم
النساء	مرة واحدة	حجة
الأنعام	4 مرات	حاجه/أتحاجوني/حجتنا/الحجة البالغة
الشورى	3 مرات	يحاجون/حجة/حجتهم
غافر	مرة واحدة	يتحاجون
الجاثية	مرة واحدة	حجتهم

كما بُيّن في الجدول أعلاه فالمشتقات التي وردت في القرآن الكريم، تحيل على الحجاج، لأنها كانت بين أنبياء الله وأقوامهم، وكلها جاءت في سياق التخاصم والجدل القائم على ثنائيتي الكفر والإيمان، ولعل قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام من أبرز ما يمكن أن يمثل هذه الثنائية:

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ٢٥٨﴾[البقرة: 258]

الآية الكريمة عبارة عن حوار حول ثلاثة قضايا هي: الألوهية والتوحيد، وإثبات قدرة الله عز وجل المعجزة، لأن ذلك الطرف الذي حاج إبراهيم عليه السلام لا ينكر وجود الله البتة؛ وإنما ينكر

[1] – وجدت هذا المصطلح عند الدكتور أحمد قادم في ثنايا تحليله لقصيدة "بانت سعاد"، وكتب في الإحالة عليه ما يلي: يطلق الرازي هذا الوصف على أهل الجدل الذين من شأنهم أن لا يقتنعوا إلا بعد أخذ ورد . ينظر التفسير الكبير، المطبعة البهية المصرية، ط 1، 1938م، 139/20.

مسألة وجود إله واحد، فهو يقر بألوهية الله تعالى، لكنه ينفي عنه صفة الوحدانية والتفرد؛ أي أنه ينكر التوحيد، وهو بهذا يخلق لنفسه مساحة، حسب اعتقاده، تمكنه من أن ينسب لذاته صفة الألوهية، وبها يدعي قدرته على ما الله عليه قادر، ولأجل هذا الغرض «حاجه في الإلهية بادعاء الإحياء والإماتة لنفسه، وهي حجة فاسدة؛ لعدم ثبوتها، فانصرف عنها إبراهيم عليه السلام، ولم يطاوله فيها متحولا إلى حجة كونية مفحمة، فأعجزه عن المغالطة بالمثل»[1].

فهذا الانتقال المسالم من الحجة الفاسدة الأولى والسماح للطرف المشاغب بالادعاء الباطل، لم يكن فعلا متروكا للصدفة المعرفية أثناء التحاجج، وإنما هو تهيئة لحجة أقوى وأعظم، حجة لن يستطيع لها جهدا، ولن تكون له أدنى فرصة للتذبذب بين الإثبات والنفي، لأنه عبثا سيحاول، إذ غالبا ما تبهت أباطيل المشاغبة بالحقائق الكونية التي لا تتحرك دون إذن من مسيرها.

إن الحجة في القرآن الكريم لا تسير على صعيد واحد، بل تتخذ مستويات عدة، فقد تأتي في سياق واهن يبلغ من الضعف مبلغا عظيما، مثل الحجج التي يطرحها المشاغبون، والتي يتحجج بها المخلفون، ولكنها في سياقات أخر تأتي وهي مشبعة بنبر قوي، منه تستخلص قوة الحجة وبرهانيتها، وبوجه أدق حينما تنسب الحجة لله عز وجل، فلا يخامر عقل عاقل شك في قوتها؛ ومن نظائر ذلك قول الله جل شأنه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ١٤٧ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ١٤٨ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ١٤٩﴾.

إن الله عز وجل في قوله المعجز هذا، يسلي نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، ويخبره أن تكذيب بعض من قومه الذين ساووا بين الله عز وجل والأوثان ليس بمدعاة للحزن، لأنهم لا يملكون من الحجج ما يدافعون به عن مسلكهم العقدي، فالتساؤل عن امتلاكهم لعلم ما كي يخرجوه هو كناية عن الحجة، لأن «لله أوامر ونواهي معلومة علما قطعيا، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه؟»[2]، فهم لا يملكون حججا ليخرجوها، وما عندهم لا يعدو أن يكون مجرد سراب لا حقيقة تؤسس له، وحدس لا يدخل في نطاق المنطق أصلا، فإذا كانوا عاجزين أيما إعجاز عن إقامة الحجة على ما هم عليه وكلامهم لا قيمة له؛ فإن ما عند الله هو الحجة البالغة. ومن دلالات الحجة حسب قاموس ج.بنريس:

[1] – عكاشة، محمود: تحليل الخطاب العربي المفاهيم والمذاهب والأسس والتطبيق (تأصيل نظرية تحليل الخطاب العربية)، ص: 12.–121.

[2] – قطب، سيد (1407هـ–1987م): في ظلال القرآن، ط 13، بيروت، دار الشروق، مج: 3، ج: 8، ص: 1227.

«حجّة: A disputing cause of dispute, argument; as الحجة البالغة, "The conclusive argument". حاجَّ : To dispute about (with في)...»[1].

فالحجة وفقا لهذا التعريف: تقام حول سبب خلاف أو نزاع، ومنه الحجة الحاسمة/الحجة البالغة، فعندما نقول كلمة حاجَّ: فهي ترد في موضع نزاع حول شيء معين.. (مع و في). والحجج تكون لها قوتها بحسب السياق والمجال الذي تمتح منه، ولأجل هذا التعدد في مستويات ورود الحجج؛ نجد أنه كلما كانت الحجة بالغة كان السلم الحجاجي أنضج، والغلبة تؤول إليه، والذي يبني على اليقيني ليس كمن يبني على الظني، «فالحجة البرهانية تستند إلى مقدمات يقينية وتبعا لذلك فنتائجها قطعية، والحجة الجدلية تستند إلى مقدمات مشهورة ولذلك فنتائجها احتمالية، وتقوم الخطابة على مقدمات مظنونة ونتائج اعتقادية وإقناعية، والسفسطة على مقدمات مشبوهة ونتائج مغلطة، بينما الشعر فيرتكز على مقدمات مخيلة ونتائجه تخييلية»[2]. وأعلى درجات الحجج وأقواها قطعا هي البراهين، وتليها المشهورات مما صادق عليه السواد الأعظم، والمظنونات، ثم المقدمات المقبولة المتخيلة، وفي درجة دنيا المقدمات الشبيهة بالحق وهي المغالطة.

إن الحجاج وإن أتى في بعض السياقات بمعنى الجدل أو الخصام؛ فإنه أبدا لا يكون في موضع العنف، أو إيراد إلحاق الضرر بالطرف المخالف، وفي القرآن الكريم تكثر الشواهد على ذلك، يقول الله عز وجل: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ٢٠﴾[آل عمران: 20]، ويقول في السورة نفسها الآية 66: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ٦٦﴾[آل عمران: 66]، وفي موضع شريف آخر يقول جل شأنه: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ٨٠﴾[الأنعام: 80]، ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ١٣٩﴾[البقرة: 139].

والحجاج تمثل لصور اللين والتلطف في طرح الفكرة ومدعماتها في صورة مقبولة، سواء أكانت غريبة أم مستأنسا بها ومعتادة، وفي هذه الآيات الكريمات دلالات عميقة على الدعوة إلى السلام، حتى بعد عدم الإقرار بالحق، فلم يطلب من الأنبياء عليهم السلام إرغام أقوامهم على التوحيد، وإنما تمت الدعوة على منهاج كلامي قولي ثابت ورصين، باللين والأسلوب الحكيم، حيث

---

[1]- John Penrice, A Dictionary and Glossary of the Koran, سلك البيان في مناقب القرآن, Adam Publishers & Distributors. P :32.

[2] – قادم، أحمد (2019م):: بلاغة الحجاج بين التخييل والتدليل، ط1، أربد–الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ص: 161.

يطرح العقيدة الصحيحة، ويترك للطرف المتلقي مساحة الإقبال أو الإعراض والصد، وعلى هذا النحو قُدِّر لسائر الشرائع أن تنشر وتتم الدعوة إليها.

وهنا ننتقل إلى صورة فريدة ضمن مسألة الحجاج والمحاججة من خلال القرآن الكريم؛ يقول الله عز وجل: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ٤٧﴾[غافر: 47] ورد في هذه الآية الكريمة لطيفة برهانية عظيمة، وهي تدل على أن الإنسان لا يمكنه أن يحيى دون حجاج وجدل، مهما كانت غايته: سواء أكان على وجه بيان صحة معتقد أم تقديم حجج لتبرير موقف ما أم طلبا للاستعطاف... بل الأعجب من ذلكم أن الحجاج الجدلي شأن قديم يعود بجذوره إلى ما هو خارج عن نطاق أهل الأرض.

وهنا نمثل لما دار بين الله جل جلاله وتقدست أسماؤه وبين إبليس لعنه الله ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾[الأعراف: 12]، فإبليس يرى أن مادته التي خلق منها تخول له أن تكون له الأفضلية على طينية البشر، وأنه لا يستحق ذانكم الاحتفال المهيب، وكأنه غاب عنه أن لله الأمر من قبل ومن بعد، أو لربما مرد منطقه إلى الشر القاصد العامد بل والأصيل فيه الذي لم يكن عارضا، وما اعتراضه وإصراره العنيد على الغواية إلا دليل تام على ذلك، فهو يبني إعراضه عن السجود على حجة في غاية الهزال والضعف، والتي حصرها في مسألة المادة. ومثل هذا الضعف اعترى الحجج التي قدمها بعض الطغاة والمكابرين ممن رفضوا الاستجابة للإيمان.

وهكذا قضت حكمة الله تعالى أنْ {وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا}، حتى ساعة الحساب وحتى أهل النار وهم فيها يتحاجُّون {**إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ**} وبهذا يكتمل المعنى والصورة العامة للحجاج الذي يعتبر ظاهرة كونية مشتركة بين جميع البشر، مهما اختلفت معتقداتهم، ومستوياتهم الثقافية، وكذا طرق تفكيرهم.

وفي ذات المساق الذي لا ينفك ويكون مثل سابقه، طرحت باقي الصور القرآنية المستنبطة من مشتقات جذر (ح. ج. ج) تشترك في الدلالة على لفظ "الحجاج" ولا تخالف المعنى اللغوي. وللأهمية التي يكتسيها موضوع الحجاج فهو يتجاوز حد كونه لفظا مجردا إلى حد النظرية المؤسسة على مبادئ علمية ومنطقية، والمدروسة باعتبارها منهاجا يؤطر القول. وبما أن الحديث مقصور على الحجاج في القرآن الكريم، فمما لا ضير فيه أن يشار إلى بعض من أنواع الحجاج في القرآن الكريم.

❖ الحجاج العقلي والبلاغي في القرآن الكريم:

للحجاج في القرآن الكريم صور عديدة، تراوح بين الحجج العقلية، والحجج البيانية... وتنتظم وفق ما في مكنة العقل البشري استعابه، وفهمه. وانطلاقا من هذه المراوحة يمكن تقسيم الحجاج في القرآن الكريم بشكل عام إلى نوعين رئيسين: "الحجاج العقلي/المنطقي" و"الحجاج البلاغي/التمثيلي".

أ) الحجاج العقلي/المنطقي:

يستمد هذا النوع من الحجاج، حججه مما يجابه به العقل، من أصول منطقية عن طريق المطارحة الفكرية بين العقول البشرية، ومثال هذا النوع من الحجاج انطلاقا من الآي المحكم؛ قوله عز وجل: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ هُمۡ يُنشِرُونَ ٢١ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾[الأنبياء: 21-22].

تبتدئ الآية الكريمة بسؤال لا يُحمل على وجه الحقيقة، وإنما يراد به استنكار مسألة اتخاذ إله مع الله، لأن المنطق العقلي حتى مع قصوره عن إلمام واستيعاب ما هو خارج عن نطاق حسه، يرفض هذا التناقض الكوني، إذ كيف لكون يسير وفق نظام واحد، متسق، متناسق، متزن أن يدبره أكثر من إله واحد؟ ولهذا «قال المتكلمون: القول بوجوب إلهين يفضي إلى المحال... لأنه لو فرضنا وجود إلهين فلا بد أن يكون كل واحد منهما قادرا على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادرا على تسكين زيد وتحريكه، فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه، والآخر تسكينه، فإما أن يقع المرادان، وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين... ولو وقع مراد أحدهما دون الآخر، فالذي وقع مراده يكون قادرا، والذي لم يقع مراده يكون عاجزا، والعجز نقص، وهو على الله محال»[1]، فمبدأ الإرادة المطلقة يستحيل توفره عند غير الإله الحق، ولو توفر في غيره، لتعددت الإرادات، وتعددت الأكوان، وصارت الحركات تناقض السكنات، وعمت فوضى كونية يستحيل معها انتظام الكون... وتبعا لذلك نصبح أمام نواميس عدة، لأن الإرادة تابعة للناموس ومحددة له وفق ما تريده الذات المريدة، «والناموس[بلا ريب] مظهر الإرادة النافذة»[2].

وملاك الأمر؛ أن الحجاج العقلي في القرآن الكريم يتخذ أبعادا منطقية، مسلمة بمبادئها. بحيث لا يستطيع المنكر لوجود الله إن أحسن استخدام عقله، أن يرد هذه الحجج، أو أن لا يقتنع بها.

ب) الحجاج البلاغي/التمثيلي:

[1] – الرازي، فخر الدين (1995م): التفسير الكبير مفاتيح الغيب، تقديم وشرح خليل محي الدين الميس، دار الفكر، ج: 22، ص: 151.

[2] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ص : 2373.

يأخذ الحجاج البلاغي/التمثيلي في علاقته مع الخطاب القرآني بعدا إثباتيا، ويمكن أن نستشف هذا البعد انطلاقا من تعريف الحجاج التمثيلي بكونه «إثبات حكم واحد جزئي لثبوته في جزئي آخر، بمعنى مشترك بينهما، والفقهاء يسمونه قياسا، والجزئي الأول فرعا والثاني أصلا، والمشترك عِلَّةً وجامعًا، كما يقال: العالم مؤلف، فهو حادث كالبيت، يعني حادث لأنه مؤلف، وهذه العلة موجودة في العالم، فيكون حادثا»[1]. وهو يعرف كذلك بالقياس التمثيلي، كما يسميه الفقهاء والمتكلمون، ويقسمون أجزاءه إلى أصل وفرع، والجامع بينهما علة، ومثال ذلك كما ساقه الجرجاني، لبيان أن العلم حادث، أصله تقرير أن كل ما هو مؤلف فهو حادث، انطلاقا من مثال: البيت حادث لأنه مؤلف، أي أن الحادث حادث لأنه مؤلف، ويكون بذلك:

- الجزئي الأول: فرعا
- الجزئي الثاني: أصلا
- العلة هي: الوجه المشترك بين الفرع وأصله.

وهذه أجزاء متوفرة في المثال المشار له في النص السابق، والذي يندرج ضمن الحجاج التمثيلي، وهو كما يلي:

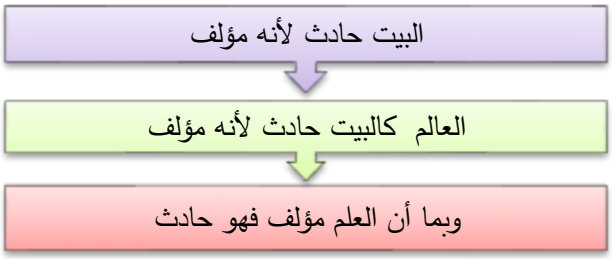

أحيانا يتلابس مفهوم المشابهة بمفهوم التمثيل، وقد يحملان في بعض الأحيان على نفس الوجه، إلا أن التمثيل أعم منها، وهي تدخل ضمنه، إذ ليس بالضرورة أن يكون التمثيل قائما على التشابه بين أجزائه، فقد تكون المشابهة حاصلة في العلاقة التي تربط بينهما، حتى وإن كانت هذه الأجزاء متنافرة من حيث نوعيتها؛ أي لا وجود للترابط بينهما من الأساس، وإنما جازت المشابهة لتشابه العلاقات الرابطة بينهما.

وعن هذا النوع من الحجاج يقول ابن وهب: «أما الحكماء والأدباء، فلا يزالون يضربون الأمثال، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأشكال، ويرون هذا النوع من القول

[1] – الجرجاني، علي بن محمد(1998 م): التعريفات، تح: إبراهيم الأبياري، ط4، بيروت، دار الكتاب العربي، ص: 423.

أنجع مطلبا وأقرب مذهبا، ولذلك قال الله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[الزمر: 27]، وإنما فعلت العلماء ذلك لأن الخبر في نفسه إذا كان ممكنا فهو يحتاج إلى ما يدل عليه وعلى صحته، والمثل مقرون بالحجة»[1]، ولتباين الناس في مداركهم وتفاوتهم في درجات العلم، ولعدم قدرة البعض على تمثل المسائل العقلية، كثر هذا النوع من الحجاج في القرآن الكريم، أي الاستعانة بالمثل لإثبات الحجة، لأنه الأنجع في تحقيق الإقناع.

ولإدراك هذا النوع من الحجاج لا بد من «المعاينة أو الإدراك الحسي الذي هو أكثر أثرا في تقرير المعاني في النفس، من إدراك اللغة المجردة عن التصوير إدراكا عقليا، فالإدراك الأول أشبه بالعلم الضروري الذي تأنس به النفس وتطمئن اطمئنانا لا تجده مع العلم النظري»[2]، فتغدو المعاينة أو الإدراك الحسي كما يسميه الجرجاني، الوسيلة المثلى لاستيعاب الصورة التمثيلية، التي تسعف في فهم المراد، وإدراك المقصد، وهذا مما قد لا ينجح العلم النظري في تحقيقه.

وليس بالغريب أن يكون للحجاج التمثيلي مرتبة عليا، لقدرته على تحقيق الإقناع ولفاعليته الحجاجية، يقول الزمخشري: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر، شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المُتَيَقَّن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامع الأبي»[3]، فكما يتضح من قوله؛ تتأكد أهمية الحجاج التمثيلي، وقدرته على إماطة الحجب عن المضمر، وإكساب الغامض المتخفي سحنة هوية، وبالإضافة إلى ذلك، هناك «بعد آخر للمعرفة الحسية كامن في النفوس، فهي في ذلك تعود إلى تجربتها الأولى في العالم»[4]، وبعد بيان دلالة هذا الضرب من الحجاج، نورد له مثلا؛ ولله المثل الأعلى:

يقول الله جل شأنه: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ٢٨﴾[الروم: 28]

تسير هذه الآية على نمط لا يحيد عن موضوع الآية السابقة، التي حاجَّت المتلقي بحجاج عقلي، إلا أن الحجاج في هذه الآية حجاج تمثيلي؛ حيث يبين الله عز وجل لهؤلاء القوم ما هم فيه

[1] – ابن وهب أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم: البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شريف، مكتبة الشباب، مصر، (دط، دت)، ص: 42.

[2] – الجرجاني، عبد القاهر (1968م): الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح :محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط2، مصر، دار المعارف، ص: 117

[3] – الزمخشري، الكشاف، ج1، ص: 72.

[4] – العمري، محمد: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ص: 394.

تناقض لا يقبله العقل، ولبيان ذلك ضرب الله جل شأنه «هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء من خلقه... وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال. ولا يساوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الاعتبار... يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده. ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم»[1]. فالمعجب في أمرهم أن المال الذي يكتنزونه ولا يجعلون لمواليهم منه نصيب، هو مال الله ورزق ساقه إليهم، إذ لو كان ما يعتقدون صحيحا، فينبغي أن يقتسموا ثرواتهم مع عبيدهم على الأقل، حتى يصح اعتقادهم، إلا أن الأمر فاسد من الأساس فلا يصح أن يبنى عليه أي شيء.

لكن أنّى لهذا أن يكون، أ ولا «ترى أن الله لو قال لعباده إني لا أشرك أحدا من خلائقي في ملكي، لكان ذلك قولا محتاجا إلى أن يدل عليه فيه، ووجه الحكمة في استعماله فلما قال: ضرب لكم... الآية، كانت الحجة من تعارفهم مقرونة بما أراد أن يخبرهم به»[2].

فقوله عز وجل: {ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ} إحالة على مثل، وهذا المثل الذي سيتم به القياس، ليس ببعيد عنهم بل هو كامن في نفوسهم، متجلٍ فيهم. إنه أشبه بنقلة من الفكر إلى النفس والذات، انطلاقا من واقعهم المعاش، والغرض من هذا المثل، التدبر بغية التوصل إلى حقيقة أن الإله واحد، وأن مقسم الأرزاق واحد، والمنظم لهذا الكون واحد.

وللدلالة على هذه الحقيقة المطلقة، صاغ لهم الله هذا المثل، الذي فصله تفصيلا، «وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم {كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}»[3].

إن الفرق بين الحجاج العقلي والحجاج التمثيلي يكمن في منطق اشتغال كل واحد منهما، والمسار الحجاجي الذي يسيران عليه، إذ ما يقوم منهما على البرهان العقلي ليس كمن يحتكم إلى حجاجية الظواهر البلاغية، وخير من يبين عن هذا الفرق طه عبد الرحمن بقوله: «لا يخفى على ذي بصيرة أن نموذج الحجاج هو قياس التمثيل، إذ المعروف أنه هو الاستدلال الذي يختص بالخطاب الطبيعي في مقابل البرهان الذي هو الاستدلال الذي يختص بالقول الصناعي»[4]، وهنا تجدر الإشارة إلى أن المثل قد يضرب باعتباره حجة للاستدلال على حجة عقلية، لقدرته على بعث الاطمئنان في نفس المتلقي ومن ثمة استقراره.

---

[1] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ص: 2766.

[2] – الرازي: التفسير الكبير، ج: 8، ص: 83.

[3] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، 2766.

[4] – عبد الرحمن، طه: اللسان والميزان، ص: 232.

المبحث الثالث: الخصومة في سورة (ص) رؤية حجاجية

إن القرآن الكريم دستور حياة، ومشفى للأرواح والعقول، ومرساة لسفن الذوات الحائرة، مُهذِب مُؤدب «يريد بآدابه وعِظاته الإنسان الاجتماعي لا الصورة الإنسانية التي تخلقها العصور التاريخية والسياسية أصنافا من الخلق، أو تفتري عليها ضروبا من الافتراء، فهو يريد كل ما فيه من الآداب الاجتماعية على هذه الجهة لا يعدوها، وليس فيه من آية من الأدب والأخلاق إلا هو يريغ بها ناحية من هذا المقصد، ومن أجل ذلك بقيت روح آدابه في أنفس المسلمين لا تغيير في الجملة وإن تغيروا لها أو انصرفوا عنها، كأنها فيهم طبيعة وراثية ولقد كانت هذه الروح –ولم تزل– هي السبب الأكبر في انتشار الإسلام»[1]، ولذلك تجد أن الخطاب القرآني يخاطب بندائه العالمين، نداء كوني متسع المدى، لا يوقفه حد، ولا يواري نوره حجب، ولا يحول بينه وبين المتلقي ستر، بل فيه حل لكل شيء، وتغير لكل وضع يخالف الفطرة البشرية، وما من معضلة إلا ولها في القرآن مخرج، بل إنه يقدم نفسه باعتباره «"تغيير لوضع" و"حل لمعضلة" و"نبذ للعنف" الذي هو عكس الحجاج، واستجابة لسؤال أمة. وكلها وجوه ذات علاقة بالحجاج في معناه الذي كنا عرضناه[2]، فهو يرمي إلى تغيير وضع ذهني في آيات من قبيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ٢﴾[يوسف: 2]، ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ٢٧﴾[الزمر: 27]»[3]، يضم بين آيه الشريفة ما يمكن تبعا له أن يعد «كتاب "إصلاح" بمعنى أنه يرمي إلى تغيير وضع قائم، فإذا كان ذلك كذلك كان القرآن حجاجا ولا مراء، إذ من تعريفات الحجاج أنه: "عمل غرضه دائما أن يغير وضعا قائما»[4] لكون غاية القرآن الكبرى وغرضه الأكبر «هو إصلاح الأمة... فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان... وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طرق النجاح وتزكية نفوسهم ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة»[5] يجد فيه المرء بغيته، فإن أراد به ما يسعده في دنياه وآخرته، وما يبصره موطن رشده وغيه، سيجد. فللنداء القرآني بكل تجلياته أنوار يبصرها المؤمن فيكون أهلا لتشرق على روحه، ويبصرها الكافر كذلك لكنها لا تعمى عيونه عن رؤيتها، وإنما ران على قلبه ما ران فما أشرق عليه نور النداء.

أولا: الخصام في القرآن الكريم ومتدانياته اللفظية

---

[1] – الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج: 2، ص: 90.

[2] – ينظر: صولة، عبد الله (2007م): الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط: 2، بيروت، دار الفارابي، ص–ص: 30–40.

[3] – المرجع السابق، ص: 43.

[4] – المرجع السابق، ص: 43.

[5] – ابن عاشور، الطاهر: التحرير والتنوير، ج: 1، ص: 81.

أ) دلالة (خ.ص.م):

لما كانت طبيعة الإنسان ميّالة للجدل؛ كما يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٖۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَكۡثَرَ شَيۡءٖ جَدَلٗا٥٤﴾[الكهف: 54]، فإن المرء عن طريق الجدل والرغبة إما في بيان الحق أو الدفاع عن قضية ما أو إنسان ما أو حق من الحقوق، أو التجادل فقط بغرض الانتصار للنفس وأهوائها وفرض الرأي وهذا ما قد يفضي إلى الخصام، فتكون دواعيه مبنية على انفعالات ذاتية في الغالب، خصوصا إذا ما كان الخصم جاهزا للدخول في نزاع فكري، وصرف الحوار الذي كان ابتداء مسالما، إلى خصومة، التي تشتق لها من جذر (خصم) مادة لغوية ثرية الدلالة، فـ «الخصم: واحد وجمع، قال الله عز وجل: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾، فجعل جمعا، لأنه سمي بالمصدر، وخصيمك: الذي يخاصمك، وجمعه: خصماء، والخصومة: الاسم من التخاصم والاختصام. يقال: اختصم القوم وتخاصموا وخاصم فلان فلانا، مخاصمة وخصاما، والخصم: طرف الرواية الذي بحبال الدلاء في مؤخرها، والطرف الأعلى هو العصم، وهي الأخصام وزوايا الوسائد والجُوالق والفرش، كلها أخصام واحدها خصم»[1]، أما عند ابن فارس فـ «الخاء والصاد والميم أصلان: أحدهما المنازعة، والثاني جانب وعاء، فالأول الخصم الذي يخاصم، والذكر والأنثى فيه سواء. والخصام: مصدر خاصمته مخاصمة وخصاما، وقد يجمع الجمع على خصوم، قال وقد جنفت علي خصومي، والأصل الثاني: الخصم جانب العِدل الذي فيه العروة، ويقال إن جانب كل شيء خصم. وأخصام العين: ما ضمت عليه الأشفار. ويمكن أن يجمع بين الأصلين فيرد إلى معنى واحد، وذلك أن جانب العدل مائل إلى أحد الشقين والخصم المنازع في الجانب؛ فالأصل واحد»[2] وأصل المخاصمة عند الأصفهاني «أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر، أي جانبه، وأن يجذب كل واحد خصم الجُوالق من جانب»[3]. وبالأوبة إلى الألفاظ الواردة في هذا السياق، والتي رجع أصلها إلى جذر واحد: (خصم)، وهي في القرآن الكريم باعتبار التالي:

	الفعل الماضي: "اختصموا"	﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ١٩﴾[الحج: 19]
		﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ

[1] – الفراهيدي، الخليل بن أحمد: معجم العين، ج: 4، ص: 191. (مادة: "خصم").
[2] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج: 5، ص: 415. (مادة: "خصم").
[3] – الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، ج: 1، ص: 284.

صيغة الفعل	الفعل المضارع بياء الغيبة: "يختصمون"	﴿يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾[آل عمران: 44] ﴿قَالُواْ وَهُمۡ فِيهَا يَخۡتَصِمُونَ ٩٦﴾[الشعراء: 96] ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمۡ فَرِيقَانِ يَخۡتَصِمُونَ ٤٥﴾[النمل: 45]
	الفعل المضارع بتاء الخطاب: "تختصمون".	﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾[الزمر: 31]
	الفعل المضارع بإدغام التاء بالصاد:	﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ ٤٩﴾[يس: 49]
	الفعل المضارع المجزوم: "تختصموا"	﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ٢٨﴾[ق: 28]
صيغة المصدر	الخصام:	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤﴾[البقرة: 204] ﴿أَوَ مَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾[الزخرف: 18]
	تخاصم:	﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾[ص: 64]
	المصدر المنقول للدلالة على اسم:	﴿ ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢ ﴾[ص: 21-22] ﴿﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩﴾[الحج: 19]

صيغة الصفة المشبهة	خصيم خصيما	﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٤﴾[النحل:4] ﴿أَوَ لَمۡ يَرَ ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ٧٧﴾[يس: 77]
صيغة المبالغة	• "خصمون:	﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨﴾[الزخرف: 58]

وللخصام متدانيات لفظية، يقترب معناها من دلالة الخصام، بل هناك من يستخدمها في سياقات معينة باعتبارها مرادفات لبعضها، منها الخلف، والجدال والتنازع والنقاش والتحاور:

ب) الخلف والجدال والتنازع:

✓ الخلف:

الخاء واللام أصول ثلاثة: أحدها أن يجيئ شيء بعد شيء يقوم مقامه، والثاني خلاف قدام، والثالث التغير[1]، «والاختلاف والمخالفة أن يأخذ كل واحد طريقا غير طريق الآخر في حال أو قول، والخلاف أعم من الضد، لأن كل ضدين مختلفان، وليس كل الاختلاف بين الناس في القول قد يقتضي التنازع، استعير ذلك للمنازعة والمجادلة»[2] يقول الله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾[النحل: 64].

✓ الجدل/ الجدال:

الجدل أي اللدد في الخصومة والقدرة عليها[3]، إذ الجيم والدال واللام «أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام»[4] يعرفه القاضي أبو يعلى (ت 458هـ): « فهو تردد الكلام بين اثنين إذا قصد كل واحد منهما إحكام قوله ليدفع به قول صاحبه»[5]. والجدل غالبا ما يحدث بسبب خلاف قد يعلو فيه الصوت وتغلب عليه الذاتية لا الموضوعية الباحثة عن الحق والصواب، وليس إثبات صحة الدعوى وإن كانت باطلة، وإنما افحام

[1] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج: 2، ص: 170.
[2] – الأصفهاني، الراغب: المفردات في غريب القرآن، ج: 1، ص: 160.
[3] – ابن منظور: لسان العرب، (مادة: "جدل").
[4] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج: 1، ص: 433.
[5] – أبو يعلى: العدة في أصول الفقه، ج: 1، ص: 184.

السامع وحمله على الإذعان، لأن الجدل في اللغة يحيل على «اللدد في الخصومة والقدرة عليها... ورجل جدل إذا كان أقوى في الخصام، وجادله أي خاصمه... والاسم الجدل: وهو شدة الخصومة»[1]. وهو من حيث الاصطلاح «مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة المناظرة والمخاصمة»[2]، من الملاحظ أن الجدل شديد الارتباط بالخصام، والخصام ينبع من الاختلاف المؤدي إلى الخلاف، أما من الناحية المنطقية؛ فهو «القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات والغرض منه إلزام الخصم وإفحام من هو قاصر عن إدراك مقدمات البرهان. أو هو دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة»[3]. فالجدل فيه نوع من العنف والإكراه، وهذا مما يتناقض مع مبدأ الحجاج الذي لا يكون إلا باللين ولا يبنى على المشاحة.

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا١٠٧﴾[النساء: 107] ﴿قَالَ قَدۡ وَقَعَ عَلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ رِجۡسٞ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٖۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ٧١﴾[الأعراف: 71] ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ٤٦﴾[العنكبوت: 46] ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ١﴾[المجادلة: 1]

✓ التنازع:

نزع: النون والزاء والعين أصل صحيح يدل على قلع شيء، ونزعت الشيء من مكانه نزعا[4]، يقول الله جل شأنه: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ١٥٢﴾[آل عمران: 152]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا٥٩﴾[النساء: 59]، ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ٤٣﴾[الأنفال: 43].

✓ الشقاق:

[1] – ابن منظور، لسان العرب، مادة "جدل"، ج: 3، ص: 99.

[2] – المرجع السابق.

[3] – الجرجاني، الشريف ، التعريفات، ص: 101.

[4] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج: 2، ص: 210.

شق: الشين والقاف أصل واحد، وهو من باب استحكام الشيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام[1] قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ١٣﴾[الأنفال: 13]، "والشقاق المخالفة، وكونك في شق غير شق صاحبك، أو من شق العصا بينك وبينه[2]، يقول جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته: ﴿فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ١٣٧﴾[البقرة: 137]، ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا٣٥﴾[النساء: 35]، ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ٨٩﴾[هود: 89].

ثانيا: الخصومات في سورة "ص"

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ٣﴾[ص: 1-3]

سورة (ص)، السورة المكية الجليلة الشريفة، التي تعالج قضية التوحيد، والرسالة النبوية، والحساب في الآخرة، عارضة هذه القضايا الكبرى في مطلعها المدهش، الذي على قصره يكتنز دلالات بلاغية إبلاغية عظيمة، فهي تصور حالة نفسية وردا فيه قسم، إنها تمثل حالة من «الدهش والاستغراب والمفاجأة التي تلقى بها كبار المشركين في مكة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لهم إلى توحيد الله؛ وإخبارهم بقصة الوحي واختياره رسولا من عند الله»[3].

فسادة قريش آنذاك لم يتحملوا الخبر الذي نزل على صدورهم ثقيلا، لذلك استهلت السورة بحرف الصاد، الحرف الذي يقسم به الله جل شأنه كما أقسم بالقرآن ذي الذكر، فهذا الحرف «من صنعة الله تعالى. فهو موجده. موجده صوتا في حناجر البشر؛ وموجده حرفا من حروف الهجاء التي يتألف من جنسها التعبير القرآني. وهي في متناول البشر ولكن القرآن ليس في متناولهم لأنه من عند الله، وهو متضمن صنعة الله التي لا يملك البشر الإتيان بمثلها لا في القرآن ولا في غير القرآن[...] وإنها لمعجزة خارقة لو كان الناس يتدبرون الخوارق المعجزة في كل جزئية من جزئيات كيانهم القريب، ولو عقلوها ما دهشوا لوحي يوحيه الله لبشر يختاره منهم»[4]، وفي مسألة الابتداء بالحرف فقد «انتبه القدماء إلى أن السور التي بدأت بالحروف المفردة بنيت على ذلك الحرف، فإن

[1] – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج: 1، ص: 433.
[2] – الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، 1ج: 1، ص: 190.
[3] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج: 5، صص: 3004-3005.
[4] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج: 5، ص: 3007.

الكلمات القافية ترددت في سورة "ق" كثيرا، والكلمات الصاديّة ترددت في سورة "ص" كثيرا وهكذا»[1]، ويذكر ابن الزبير الغرناطي أن «هذه السور إنما وقع في أول كل سورة منها ما كثر ترداده فيما تركب من كلمها. ويوضح لك ما ذكرت أنك إذا نظرت في سورة منها بما يماثلها في عدد كلمها وحروفها وجدت الحرف المفتتح بها تلك السورة إفرادا وتركيبا أكثر عددا في كلمها منها في نظيرتها ومماثلتها في عدد كلمها وحروفها»[2]، إن القرآن من كل جوانبه معجز، صاحب الفكر يعجزه، صاحب الحساب يعجزه، صاحب القانون يعجزه، صاحب اللغة يعجزه، صاحب الفيزياء يعجزه... «يراه كل راسخ في علمه معجزا»[3]، ومما أعجز العقول الحروف التي اختصت بها سور عن غيرها، إلا أن مطلع سورة (ص) يعد من بين أقوى المطالع القرآنية، لتضمنه قسما معجزا بحرف يفيد القطع والحدة، وقسم بكتاب الله الخالد، في تغييب ظاهري تام للمقسم عليه، لينصرف الحديث عن أهل التنطع والشقاق المغرقون في استكبارهم وعزتهم التي لن تغني عنهم شيئا، فالمطلع وحده أمارة مشرقة على بلاغته المعجزة، وعلى أن «الإبلاغية في سورة (ص) ترتبط باسم السورة فهو يشكل إضاءة لمضمون السورة ولاسيما أن السور القرآنية التي تبدأ بالحروف المقطعة تمثل تحديا للمنكرين والمعاندين لما جاء به خاتم المرسلين، ونجد أن من سبب تسمية السورة وأسباب نزولها، وعلاقتها بما قبلها وبعدها فيه إبلاغ، فالاسم يعطي انطباعا عن المسمى فنجد تناسبا بين المضمون والاسم؛ فأسماء السور القرآنية تناسب كل منها اسم السورة التي وضع لها إذ اختيرت السور أسماؤها بعناية إلهية تكشف عن تناسب شديد يربط بين مضمون السورة واسمها»[4] وقد اختلفوا في سبب تسمية السورة حسب ما ورد عند الطبري أن أهل التأويل قالوا في معنى قوله تعالى (ص): «فقال: هو المصاداة، من صاديت فلانا، وهو أمر من ذلك، كأن معناه عندهم: صاد بعلمك القرآن، أي عارضه به، ومن قال هذا تأويله؛ فإنه يقرؤه بكسر الدال، لأنه أمر ... حدثني علي، قال: ثنا أبو صالح، قال: ثني معاوية عن علي عن ابن عباس، قول (ص) قال: قسم أقسمه الله، وهو من أسماء الله... وقال آخرون: هو اسم من أسماء القرآن أقسم الله به... وقال آخرون: معنى ذلك: صدق الله»[5]، وبعد هذا المطلع الذي يشي بأن الأمر جلل، ضُمنت السورة خصومات يرتبط صاد سورتها بها ارتباطا وثيقا، فيه من الحدة والشدة والقطع ما في الخصام من تنازع وشقاق وجدل، وهي أمور يمكن قراءتها في سياق حجاجي.

---

[1] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج: 1، ص: 169.

[2] – الغرناطي، ابن الزبير: ملاك التأويل، ج: 1، ص: 30.

[3] – السامرائي: التعبير القرآني، ص: 20.

[4] – محمد، زينب جاسم: الإبلاغية في الخطاب القرآني؛ سورة (ص) أنموذجا، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، بحوث المؤتمر الدولي الثالث للغة العربية، ص: 197 وما بعدها.

[5] – الطبري: جامع البيان، ج: 21، ص: 137 وما بعدها. وينظر: الطبرسي: مجمع البيان: ج: 8، ص: 343.

✓ **الخصومة الأولى: الكفار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم** ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۖ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ٨ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ٩ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ١١﴾[ص: 1-11]

✓ **الخصومة الثانية: الرسل مع أقوامهم** ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِۖ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ١٥ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ١٦﴾[ص: 12-16]

❁ **المواساة القرآنية:** ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ٢٠﴾[ص:17-20]

✓ **الخصومة الثالثة: اختصام الخصمين عند داود عليه السلام.** ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ٢١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ٢٢ إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ٢٣ قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ۩٢٤﴾[ص: 21-24]

✓ **الخصومة الرابعة: تخاصم أهل النار** ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ٥٩ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ٦٠ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ٦١ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ٦٢ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ٦٣ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ٦٤ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ٦٦﴾[ص: 59-66]

✓ **الخصومة الخامسة: اختصام الملأ الأعلى في درجات العلم** ﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ٦٧ أَنتُمۡ عَنۡهُ مُعۡرِضُونَ٦٨ مَا كَانَ لِيَ مِنۡ عِلۡمِۭ بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ٦٩ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ٧٠﴾

✓ **الخصومة السادسة: مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم** ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٧٤ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ٧٥ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ٧٦ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ٨١﴾

✓ **الخصومة السابعة: الاختصام بشأن إغواء الخلق** ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ٨٣ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ٨٥ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ٨٧ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ٨٨﴾[ص: 67-88]

تحليل:

إنها «آيات منزلة من حول العرش، فالأرض بها سماء هي منها كواكب، بل الجند الإلهي قد نشر له من الفضيلة علم وانضوت إليه من الأرواح مواكب، أغلقت دونه القلوب فاقتحم أقفالها، وامتنعت عليه أعراف الضمائر فابتز أنفالها»[1]، إنها آيات بينات تسير على نمط حجاجي إقناعي لا إكراه فيه، ذلك أن الأسلوب القرآني يتساوق والمنهج العام الذي يؤطر الإسلام؛ بما يدعو إليه من محبة، وعفو، وصفح جميل، حتى في الهجر، الهجر الذي قد يكون ساعة الخصام –في آحايين كثيرة– هو الخيار الأخير الذي لا يجد عنه المرء بدلا، فالإسلام يدعوك إلى التلطف في هذا الهجر، أن يكون هجرا جميلا... في كل التعبيرات القرآنية ترى العذوبة في الدعوة إلى سائر الأمور سواء تلك التي تأتي في سياق الأمر أو النهي أو الكراهة... تساق في قالب حجاجي مدعم بما يبرهن عليها، لأنه خطاب مقصود، بل إن «التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كل لفظة بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تراع في هذا الوضع الآية وحدها ولا السورة وحدها بل روعي في هذا الوضع التعبير القرآني كله»[2] في بدايتها إعلان عن التخلي عن أولئك الغارقين في كبرهم، الذين استكثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتباءه، واختياره هو دون سواه، ذاك الذي ما تولى إمارة، ولا ساد فيهم، ولا ملك ما يجعله في نظرهم القاصر الغارق في عبادة الأوثان أهلا لسيادة الدنيا بما حباه الله من معجزة، وأيده بفتوحات ربانية، وحقائق بنت الوحي مؤيدة بإذن الله تعالى، إذ «الحقائق التي أخبرنا بها الوحي علم مطلق، والمسلمون يؤمنون بذلك ولا يسلمون

[1] – الرافعي: تاريخ آداب العرب، ج: 2، ص: 23.

[2] – السامرائي، فاضل صالح (1427هـ/2006م): التعبير القرآني، ط: 4، دار عمان، ص: 11.

بمطلقية العلم البشري، إذ لم يؤت الإنسان من العلم إلا قليلا»[1]، وقلة العلم هذه هي التي توقع المرء في شر ما يجهله، إذ أن هؤلاء القوم لما حصروا الاجتباء والاصفاء الإلهي على قوة ما يملك المصطفى هلكوا، لما ستكبروا وغلوا في كبرهم، وجعلوا من ثباتهم على عبادة أصنامهم صبرا يرجون عليه أجرا باطلا، وكي لا يتسلل إلى قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم حزنا أو أسىً على حالهم الضال، وشقاقهم المؤذي لهم قبل غيرهم، سلّاه الله وواساه، بذكر حال الأقوام الماضين مع رسلهم الذين بعثوا فيهم، ليتحول المشهد من الخصام بين كبراء قريش ورفضهم للدعوة المحمدية، إلى مشهد آخر وهو خصام الماضين واستكبار الأقوام، وأن هذا الشقاق والجدل الفارغ والتعصب للرأي؛ ديدن الكفار الذين لم يتذوقوا حلاوة الإيمان، لأن كبرهم منعهم من ذلك. ولأن حياة الرسل جميعا "كما قصها القرآن علينا، نرى أن الصبر كان قوامها، وكان العنصر البارز فيها، ونرى الابتلاء والامتحان كان مادتها وماءها"[2]، فكان أن اختصم بين يدي داود عليه السلام أولئك الذين تسوروا المحراب، فكان في اختصامهم امتحان وابتلاء واختبار لداود عليه السلام، إذ «القضية –كما عرضها أحد الخصمين– تحمل ظلما صارخا مثيرا لا يحتمل التأويل. ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة؛ ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا، ولم يطلب إليه بيانا، ولم يسمع له حجة. ولكنه مضى يحكم[...] ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا ملكين جاءا للامتحان، امتحان النبي الملك الذي ولاه الله أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة... ولكن القاضي عليه ألا يستثار، وعليه ألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد. قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته؛ فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعا أو كاذبا أو ناقصا»[3]، ومن هذا الضرب الابتلائي الذي يختبر به صدق الإيمان أو دقة التحري وضبط الأمور، والقدرة على التملك وتولي شؤون الناس... ما ابتلي به نبي الله سليمان عليه السلام، إذ جعلته فتنته في الخير الذي هو كناية عن الخيل، ذكرت القصة في سياق يخاطب به النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ليتدبر ويرى أن الابتلاء مما كتبه على المصطفين، يقول الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ٢٩ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ٣٠ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ٣١ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ٣٢ رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ٣٣ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي

[1] – بازي، محمد: البلاغة الكبرى "نحو نظرية وجودية لصناعة الخطاب وتأويله"، ص: 35.

[2] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج: 5، ص: 3016.

[3] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3017.

بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ٤٠﴾[ص: 29–40]، ويمضي السياق القرآني في عرض الابتلاءات النبوية: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ٤٤ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ٤٨﴾[ص: 41–48]، فكانت هذه الفسحة التصويرية الفنية لعرض حياة المجتبين من ضنائن الله أصحاب البصيرة التي أشرق عليها نور الله تعالى، وبيان ما كابدوه من مشاق وابتلاءات شتى، وما لازموه من صبر ورحمة وإفضال وبذل في سبيل الدعوة، فكان هذا ذكرا لتلك "الحيوات الرفيعة في الأرض وفي هذه الدنيا... ثم يتابع السياق خطاه، مع عباد الله المتقين، ومع المكذبين الطاغين إلى العالم الآخر وفي الحياة الباقية"[1] لتدب بعد ذلك حركة انتقالية فريدة في التعبير القرآني إنها انتقال من الأرض إلى السماء، ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ٤٩ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ٥٠ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ٥١ ﴿وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ٥٢ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ٥٣ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ٥٤ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ٥٥ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ٥٦ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ٥٧ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ٥٨﴾[ص: 49–58] إنه معراج تعبيري ونقلة تبدأ المشهد "بمنظرين متقابلين تمام التقابل في المجموع وفي الأجزاء، وفي السمات والهيئات: منظر "المتقين" لهم "حسن مآب" ومنظر "الطاغين" لهم "شر مآب". فأما الأولون فلهم جنات عدن مفتحة لهم الأبواب. ولهم فيها راحة الاتكاء، ومتعة الطعام والشراب... وأما الآخرون فلهم مهاد، ولكن لا راحة فيه. إنه جهنم "فبئس المهاد" ولهم فيها شراب ساخن وطعام مقيئ"[2]، يبقى السياق ذاته، والمكان العليّ الذي لولا كتب الله ما علمنا عنه شيئا، هناك حيث سيكون المشهد الحي الشاخص الآخر بما فيه من حوار الذي يمثل الخصومة الرابعة، الدائرة بين ثلة كانت متوادة متحابة في الدنيا، لكنها اليوم متناكرة ينبذ بعضها بعضا، إذ كان يملي بعضهم لبعض في الضلال، وكان بعضهم يسخر من المؤمنين ويهزأ من دعوتهم ودعواهم في النعيم، كما يصنع الملأ من قريش[3] وهم يقولون: "أأنزل عليه الذكر من بيننا" فؤلئك مثل هؤلاء. ويا بعد ما بين مصير المستهزئين والمتقين.

[1] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج: 5، ص: 3023.

[2] – قطب، سيد: في ظلال القرآن، ج: 5، صص: 3023–3024.

[3] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3024.

بعد هذا يتغير السياق، ليتخذ الخصام نوعا آخر، يتجلى في الخصومة الخامسة عن العلم ودرجاته، بالابتداء بالنبأ فلا أحد كان يتصور أو يستطيع أن يدرك "في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغير وجه الأرض؛ ويوجه سير التاريخ؛ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة؛ ويؤثر في ضمير البشرية وفي واقعها؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما. وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة. يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة"[1] ولذلك جاء هذا النبأ الأعظم، الذي يثبت صدق الدعوة، ويؤيد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيانا لكونه إنما هو مبعوث حامل لهذا النبأ الجلل، وأنه لم يؤلفه أو يبتدعه، وأنه ما كان له ليعلمه لولا أن الله أعلمه وأوحى إليه بنبأ عن هذه الخصومة العلوية.

فينتقل السياق مرة أخرى، ويحدث انبعاث من نوع آخر، إنها خصومتان، الثانية متممة للأولى، الأولى فيها اعتراض إبليس وعدم طاعته لله سبحانه وتعالى في أمر السجود لآدم، ولعل هذا أسمى صورة تجلى فيها الحسد "قال: أنا خير منه. خلقتني من نار وخلقته من طين" إنه «الحسد ينضح من هذا الرد، والغفلة أو الإغفال للعنصر الكريم الزائد على الطين في آدم، والذي يستحق هذا التكريم، وهو الرد القبيح الذي يصدر عن الطبيعة التي تجردت من الخير كله في هذا الموقف المشهود»[2]، وقد ورد هذا المشهد الذي يعرب عن حسد إبليس لآدم عليه السلام في سورة الأعراف: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ١١ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ١٢ قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ١٧ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[الأعراف: 11-18] ويمتد السياق في إبراز سوء إبليس وكفره، في الخصومة الأخرى التي أقسم فيها بعزة الله أن يغوي الناس ويجعل منهم أتباعا.

وفي الختام يكلف الله تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم، بإلقاء القول الأخير: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ٨٧ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۢ٨٨﴾[ص: 86-88] دعوة خالصة " للنجاة، بعد كشف المصير وإعلان النذير، الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجرا وهو الداعية السليم الفطرة، الذي ينطق بلسانه، لا يتكلف ولا يتصنع، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب، وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون. وإنه

[1] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3026.

[2] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3028.

للنبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم، وليعلمن نبأه بعد حين، نبأه في الأرض، وقد علموه بعد سنوات من هذا القول، ونبأه اليوم في اليوم المعلوم. عندما يحق وعد الله اليقين: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ٨٥﴾[ص: 85]"[1]، وهذا متمم للمشاهد، التي صُورت تصويرا معجزا يعاش ويحس، نظوم فريدة تشد بعضها بعضا، يناسب مستهلها ختامها "إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها: وهو الإيقاع المدوي العميق، الموحي بضخامة ما سيكون[2]: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ٨٨﴾[ص: 88]"

ومن روائع البيان قوله تعالى في ختام سورة (الصافات) –تقع قبل سورة (ص)–: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ١٧١ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ١٧٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ١٧٤ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ١٧٥ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ١٧٦ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ١٧٧ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ١٧٨ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ١٧٩ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ١٨٢﴾[الصافات: 171–182]، الوعد قائم وكلمة الله هي العليا، ختام فيه تطمين للرسل وتهديد للأقوام المعاندين المكابرين، لذلك "يختم الله سبحانه وتعالى السورة بتنزيهه واختصاصه بالعزة، وبالسلام من الله على رسله، وبإعلان الحمد لله الواحد رب العالمين بلا شريك"[3] تناسب السورة مع التي قبلها في صورة بلاغية إبلاغية حجاجية؛ فالقرآن الكريم بالأصالة «كالسورة الواحدة، لاتصال بعضه ببعض بل هو كالآية الواحدة»[4].

أما عن بلاغة الحجاج في السورة الكريمة –سورة (ص)–، وبإعادة إحالة لفظ حاج على المعجم اللغوي نجد أنه بمعنى «خاصم، وهو فعل جاء على زنة المفاعلة، ولا يعرف لحاج في الاستعمال فعل مجرد دال على وقوع الخصام، ولا تعرف المادة التي اشتق منها، ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان... مع أن حاج لا يستعمل غالبا إلا في معنى المخاصمة»[5]. ومن دلالات المفاعلة المشاركة والتفاعل الذي يدل على الدينامية الفكرية، وبهذا يثبت أن المقام في هذا الحوار القرآني مقام حجاجي تفاعلي على جهة الجدل بامتياز.

فلا شك أنها تروم ببلاغتها محاججة أهل الباطل، وتثبيت السائرين في طريق الحق، وإرشاد الحائرين التائهين في دروب التشتت الذين لم يثبتوا على أمر واحد، وإقناع المترددين بأسلوب

[1] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3029.
[2] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3029.
[3] – المرجع السابق، ج: 5، ص: 3003.
[4] – الرازي: التفسير الكبير، ج: 30، صص: 2014–319. وينظر: 104/32.
[5] – ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر–الدار الجماهيرية للنشر، ج: 3، ص: 31–32.

بلاغي حواري حجاجي ذلك أن «مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم؛ لأنه[لا] انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب به»[1]، وهو استدراج لطيف لا إجبار فيه، يريك الطريق، يمدك بالحجج والبراهين، يزودك بالزاد المعرفي، ويتركك.

إن استنباط الأسس التي يبتغى من ورائها إصلاح المجتمع، لن تجد لها مرجعا أسمى من القرآن الكريم، دوننا في هذا المقام سورة (ص)، التي أرتنا من صنوف المخلوقات أصنافا متنوعة، كل شخصية منها ملأت مكانها الحواري بحجج تراها صائبة، لكن يتبدى للمتلقي أن سبب الانفعال الذي أدى إلى الاختصام هو عدم الرغبة في التخلي عن الاعتقاد، والانصياع لنهج آبائهم الأولين وإن كانوا لفي ضلال مبين، إن إذعانهم في هذا المقام وتواصيهم بعضهم بعضا بالتزام الصبر مرده إلى الكبر والحسد، وهي نفس الدوافع المحركة لإبليس حين رفض السجود لآدم عليه السلام، أما الصنف الآخر فدافعه الاختبار والامتحان، إذ الخصومة افتعلت لاختبار داود عليه السلام.

أما اختصام الملأ الأعلى فذاك شأن عظيم في درجات العلم. ومن أجل ما يمكن استنباطه هنا أن هذه الخصومات على جلالة موضوعاتها فإنها صيغت على نمط حجاجي يجلي ضرورة التواصل، الذي يعد نهجا كاشفا لرأي الآخر، وفكره، ومشاعره، وفي أحايين كثيرة شخصيته بما تنطوي عليه من محاسن ومعايب، فمن أجل هذا ينبغي الاستلهام من القرآن الكريم أدبا يستطاع من خلاله بناء إنسان صالح، ولا غرو في أن يكون «كل أدب استوحى جوهرا أو عرضا ما يقصده الشرع من صلاح الإنسان، منطلق للجمالية الأدبية المطلوبة في تربية ذائقة المتلقين وتهذيب نفوسهم. الدين لا يرفض التأنيق والتجميل المبلِّغ للمقاصد السامية، ودليل ذلك خطاب القرآن الكريم لغة وأساليب وصورا وبلاغة، وخطاب الحديث النبوي وجمالياته في القول، واستراتيجياته الخطابية لا تضاهى؛ فهي متجددة بتجدد الأحوال التي قيلت فيها، وتظل أعلى درجة من الصناعة البلاغية»[2]، فالذي ينبغي فعله في كل فرع من فروع المعرفة أن يتم الاستقاء من القرآن الكريم، لما يكتنفه من قوى بلاغية محملة حجاجيا، لأن «عدم إدراك قوة الأداة البلاغية في بناء الكون وصناعة الإنسان المتسامح، الراقي، المتناغم مع التحولات التاريخية المتمسك بأصوله وهويته، المنطلق نحو آماله وحسابه في كل لحظة. والنتيجة أن صورة الإنسان الذي نبنيه هو نتاج الخطاب الذي نتداوله، ونعده مرجعا حاكما، بسبب الفهوم والتمثلات الخاطئة عما يريده الشرع منا، والاغترار بالنموذج الذي يقدمه لنا الأدباء في صور مختلفة»[3]، فهذا الإدراك هو ما سيصنع لنا حوارا إنسانيا

[1] – ابن الأثير: المثل السائر، ج: 2، ص: 64.

[2] – بازي، محمد: البلاغة الكبرى "نحو نظرية وجودية لصناعة الخطاب وتأويله"، ص: 37.

[3] – المرجع السابق، ص: 118.

متزنا، متناسقا ومبدأ الاستخلاف في الأرض، وبذا يستطاع أن يخلو كل حوار من الخصام، عندما ندرك أن كل شيء يراد به وجه الله لا يضيع، يصبح كظم الغيظ والعفو والصفح من السمات اللازمة للإنسان المسلم، ولبيان هذه الأغراض السامية فلغة القرآن جاءت قريبة من القلوب، يحبها كل من يسمعها وإن لم يذعن ويؤمن، إنها تؤمن الجانب النفسي، بل و«تحرص اللغة أكبر الحرص على أمن اللبس لأن أداة اللغة اتصال بين أطراف مختلفة فإذا كانت العبارة عرضة للبس لم يتحقق الغرض المرجو منه الاتصال ومن هنا قامت الشروط الصوتية والصرفية والنحوية حارسا على تحقيق القرائن التي يتبين بها المعنى»[1]. المعنى الذي يستشف من الأدوار التي تؤديها اللغة أي «الحكاية وتصوير الأحاسيس الداخلية للإنسان؛ الحزن، الفرح، الحسرة، الآمال، التعجب، والأسئلة التي تدور في داخل نفس الإنسان»[2]، لكن هذا الاستكناه لا يمكن قراءته في سياق واحد، منعزل عن الواقع، لأنه «بين اللغة والواقع ارتباط مستمر. وبعبارة أخرى إن أساس اللغة وسبب وجوده هو الواقع الخارجي الذي ينطبع في قوة الشعور والإدراك الإنساني، وعليه فالتواصل بين آحاد الناس إنما يقوم على أساس الواقع دون أي أساس آخر»[3]، تعكس اللغة بوجودها الفعلي المتحقق في الواقع نظاما اجتماعيا يتواءم وطبيعة التفكير الإنساني؛ «وعلى هذا الأساس نشأ ذلك الارتباط الوثيق بين اللغة وبين الرؤية الكونية، الاعتقادات والقيم التي يحملها أي مجتمع بشري. إن ما يحتل مكانة في ذهن البشر وقوة الشعور لديه لا يتمثل في المصاديق الخارجية للأشياء، بل في المفاهيم والمعاني التي تحكي عنها، وانعكاس المفاهيم وكيفيتها وكميتها تابعة لما نراه ونلاحظه من أشياء ومعان»[4]

في سورة (ص) طغى الحوار في النظم القرآني، ليبرز الجانب التواصلي، على اعتبار أن «التواصل... هو خاصية الأفراد الذين يعيشون في المجتمع، فهؤلاء لا ينفكون يتبادلون رسائل بواسطة أنظمة علامات قصد الإقناع أو الإغراء، مقيمين علاقات تأثير ناجعة قليلا أو كثيرا»[5]، وبما أنه من ضمن «ما تشترك فيه هذه التحديدات هو أن التواصل كأنه ضرب من الجواب عن القضية الكبرى للجماعة الاجتماعية، فالتواصل يمكن الناس من إقامة علاقات بينهم تحملهم على

[1] – حسان، تمام: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، ص: 276.

[2] – روشن، محمد باقر سعيدي (1435هـ/2014م): تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، ترجمة: علي عباس، الموسوي، ط: 1، بيروت، ص: 41.

[3] – المرجع السابق، ص: 42.

[4] – روشن، محمد باقر سعيدي: تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، ص: 44.

[5] – باتريك شارودو، دومينيك مانغينو (2008م): معجم تحليل الخطاب، ترجمة: حمادي صمود، عبد القادر المهيري، المركز الوطني للترجمة، تونس، ص: 109.

تقدير ما يفرق بينهم وما يجمع، فينشئون بذلك علاقات نفسانية واجتماعية»[1] فالخطاب القرآني بهذا المعنى يكشف عن نقطة التواصل، بل ويبرز أنماطا مختلفة منه، نمط بشري بين الناس، ونمط بشري إلهي، أي بين الله سبحانه وتعالى وبين نبي من الأنبياء أو قوم من الأقوام، ونمط تواصلي رفيع مذهل؛ إنه ذاك النمط الحواري السماوي القائم بين الله تعالى وملائكته، ثم النمط الخالد وهو الاتجاه التواصلي بين الله تعالى والعالمين، ويجلي هذا الحوار بعدا آخر، يحمل كذلك على جهة الحجاج إذ كل «ما نلمحه في تلك الآيات وهي تتحدث عن أصناف الناس ومواقفهم ومشاعرهم، وما يفرحهم ويحزنهم، ما نجده من بيان لمكنونات النفس وخفاياها، ودوافعها في آي القرآن الكريم، قد يكون ذلك في القصة القرآنية وقد يكون ذلك في الحديث عن أعداء المسلمين. وقد يكون ذلك في الدنيا.

وقد يكون في الآخرة كذلك، فإنك لتقرأ الآية من القرآن الكريم، وإذا بها تصور نفسية أولئك الذين تتحدث عنهم صورة واضحة المعالم، بينة الاتجاه، لا تهمل جزئية ولا تنسى مشهدا»[2]، وكم من مرة سمعنا عن إنسان دخل في دين الله لما تدبر هذا التصوير، وأذعن لما فيه من روعة وبيان. ذلك أن «القرآن كتاب تبليغ وإقناع وتبيين، وقوام هذه الفصيلة فيه هذا التوافق التام بين أركانه وأحكامه، وبين عقائده وعباداته، وبين حجته ومقصده، فكل ركن من أركانه يتنزل فيه بأقداره، ويوافق في تفصيله سائر أركانه التي تتم به، أو يتم بها على قدر مبين. ليس أتم ولا أعجب من التوافق بين تمييز الإنسان بالتكليف، وبين خطاب العقل في هذا الكتاب المبين بكل وصف من أوصاف العقل، وكل وظيفة من وظائفه في الحياة الإنسانية»[3]، ولا يعزب عن العاقل أن المنهج القويم الذي تسير به الحياة بسلام هو المنهج القرآني: أليس «الخطر الكبير في حياة الناس اليوم بمقدار بعدها عن منهج الله سبحانه وبمقدار ما تبتعد عن هذا المنهج يكون نصيبها من التخلف والتأخر»[4]؟ إن العقاب ليكون في أحايين كثيرة بقدر البعد عن كتاب الله تعالى، وعدم تمثله في حياة المسلمين. بتنا اليوم نرى المشاحنة والاستكبار على بعضهم البعض يدب بينهم، وينسى البعض أن استكبار الأقوام على أنبيائهم أسقطهم في الهلاك واستحقاق السخط والمقت الإلهي، مكابرة إبليس وتجرئه على الله تعالى أخرجه مما كان فيه نعيم، لكن الذي يؤخذ يقينا أن التريث وعدم الانفعال يجنب الإنسان الخصام، ويستطيع إذا ما اتبع الوصية النبوية "عدم الغضب" أن يقوم بحوارات ناجحة مسالمة يحاجج فيها كيفما يشاء لكن بلا عنف، يخرجه من قلوب الناس، فيصبح مذموما مدحورا.

---

[1] – المرجع السابق، ص: 111.

[2] – عباس، فضل حسن (2004): إعجاز القرآن، ط: 5، دار الفرقان، ص: 330.

[3] – العقاد، عباس محمود (2013م): الإنسان في القرآن، القاهرة، مؤسسة هنداوي، ص: 17.

[4] – الجلالي، عبد الله (1415هـ/1995م): العلاقات الاجتماعية في القرآن، ط: 1، مكتبة دار السلام، ص: 18.

الخاتمة:

يحتل الإنسان مكانة رفيعة في القرآن الكريم، إنه يتموقع في أشرف مكان فيه، وبالأوبة إلى سورة (ص) ستجد أن الحوار إن لم يكن فيه الإنسان طرفا، كان هو مداره، باعتباره كائنا مكلفا، نال شرف التكليف لينماز به عن غيره من المخلوقات، تلك التي سخرها الله سبحانه وتعالى للإنسان، يقول جل شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾[لقمان: 20]

هذا التسخير الإلهي يشي بأن للإنسان مكانة سامية وجد في الأرض لتحقيق مبدأ الاستخلاف، كي يكون خير خليفة على هذه الأرض، ولا يتحقق ذلك إلا بالتعاون والتآخي، واتخاذ القرآن الكريم دستورا يؤطر حياته، ويرشده إلى الصواب، كل هذه الأمور لا يمكن للفرد الواحد أن يحققها بمعزل عن الآخرين، بل لابد له منهم، وكل خطوة في هذا الباب لا تبدأ دون تواصل وحوار، يوظف فيه الحجاج بغية الإقناع والاستمالة ضمن سلم حجاجي يختلف من إنسان لآخر، لكن إذا ما انحرف المسار الحجاجي، وسار على سبيل هجومي فيه عنف وسب... حينها لن يُتحدث عن الحجاج، وإنما ذاك شَرك التنازع الفكري الذي يؤدي في الغالب إلى خصومة. تنشأ في الغالب عن عدم الرغبة في الاقتناع، بل في أحايين كثيرة الصد عن الطرف المحاور الآخر وعدم الرغبة في الاستماع إليه، والاستهزاء بكلامه، والتقليل من شأنه، ورميه بما ليس فيه، وهذا ما فعله سادة قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم فهم لما استكثروا عليه كونه المجتبى الذي اصطفاه الله لنشر الإسلام وحمل الدعوة المحمدية خاصموه، وذات الأمر حدث مع غيره من الرسل والأنبياء...

إن الذي يوصى به في ختام هذه الدراسة، أن تكون لها دراسات متممات أخر، تضبط الأصول الحوارية المستنبطة من القرآن الكريم. في دعوة مضيئة إلى نبذ الخصام وتجنبه، وفتح باب الحوار والانصات، ودعم الحق أينما كان، والدعوة إليه بشتى الوسائل.

قائمة المصادر والمراجع:

- ابن الأثير، ضياء الدين (2010): النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن الأثير، ضياء الدين (د.ت): المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، (د.ط)، القاهرة: دار نهضة مصر.
- باتريك شارودو، دومينيك مانغينو (2008): معجم تحليل الخطاب، ترجمة: حمادي صمود، عبد القادر المهيري، تونس: المركز الوطني للترجمة.

- بازي، محمد (1433هـ/2022م): البلاغة الكبرى "نحو نظرية وجودية لصناعة الخطاب وتأويله، الوجود بالخطاب؛ تنزيل الإبدالفي نظرية الأدب الدال، ط: 1، الأردن: دار كنوز المعرفة.
- تمام حسان: مفاهيم ومواقف في اللغة والقرآن، عالم الكتب، القاهرة، ط: 1، 2010.
- الجرجاني، عبد القاهر (1968): الرسالة الشافية ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تح: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط2، مصر: دار المعارف.
- الجرجاني، علي بن محمد (1998): التعريفات، ، تح: إبراهيم الأبياري، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الجلالي، عبد الله (1415هـ/1995م): العلاقات الاجتماعية في القرآن، ط: 1، مكتبة دار السلام.
- الرازي، فخر الدين: التفسير الكبير مفاتيح الغيب (1995)، تقديم وشرح خليل محي الدين الميس، (د ط)، دار الفكر.
- الرافعي، مصطفى صادق (1393هـ/1973م): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط: 9، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الرافعي، مصطفى صادق (2009): تاريخ آداب العرب، ط: 2، بيروت: دار الكتب العلمية.
- عبد الرحمن، طه (1998م): اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط: 1، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- روشن، محمد باقر سعيدي (1435هـ/2014م): تحليل لغة القرآن وأساليب فهمه، ط: 1، ترجمة: علي عباس، الموسوي، بيروت.
- الزركشي، بدر الدين (1410هـ/1990م): البرهان في علوم القرآن، تح: يوسف المرعشلي، جمال الذهبي، إبراهيم الكردي، ط: 1، بيروت: دار المعرفة.
- الزركشي، بدر الدين (1427هـ/2006م): البرهان في علوم القرآن، تح: أبي الفضل الدمياطي، دار الحديث.
- السامرائي، فاضل صالح (1427هـ/2006م): التعبير القرآني، ط: 4، دار عمان.
- السيوطي، جلال الدين (1408هـ/1988م): معترك الأقران في إعجاز القرآن، تح: أحمد شمس الدين، ط: 1، مكة المكرمة: دار الباز، ، بيروت: دار الكتب العلمية.
- صولة، عبد الله (2007): الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط: 2، بيروت: دار الفارابي.
- ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر–الدار الجماهيرية للنشر، (د.ت).

- عباس، فضل حسن (2004): إعجاز القرآن، ط: 5، دار الفرقان.
- العقاد، عباس محمود (2013م): الإنسان في القرآن، القاهرة: مؤسسة هنداوي.
- عكاشة، محمود (1436هـ/2015م): تحليل الخطاب العربي المفاهيم والمذاهب والأسس والتطبيق (تأصيل نظرية تحليل الخطاب العربية)، ط: 1، مكتبة المتنبي.
- الغرناطي، ابن الزبير(1427هـ): ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظِ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، ط: 1، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (1426هـ/2005م)، القاموس المحيط، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط: 8، مؤسسة الرسالة.
- قادم، أحمد (2019): بلاغة الحجاج بين التخييل والتدليل ، ط1، أربد–الأردن: عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع.
- قطب، سيد (1407هـ/1987م): في ظلال القرآن، ط 13، بيروت: دار الشروق.
- محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، (د.ط)، (د.ت)، الدار البيضاء–بيروت: أفريقيا الشرق.
- ابن منظور، لسان العرب، تح: عبد السلام محمد هارون، مادة "حجج". دار صادر–بيروت، ط1 (1997)، مج: 2، ص: 580.
- ابن وهب (أبو الحسن إسحاق بن إبراهيم ت4هـ)، البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شريف، مكتبة الشباب، مصر، (دط، دت).
- أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء: العدة في أصول الفقه، تح: أحمد بن علي بن سير المباركي، المملكة العربية السعودية، الرياض،ط: 3، 1414هـ/1993.
- يوسف محمد عليمات، بلاغة الحجاج في النص الشعري: دالية الراعي النميري نموذجا، مجلة جامعة دمشق–المجلد 29–العدد (1+2)–2013.
- سلك البيان في مناقب القرآن, John Penrice, A Dictionary and Glossary of the Koran, Adam Publishers & Distributors.
- Le grand Robert, Dictionnaire de la langues française , 1 ere édition, Paris, 1990.
- Longman, Dictionary Of contemporary english, Longman 1989.